

عمّة زكية

يوسف العاني

الحديث عن هذه الإنسنة الفنانة المناضلة لا يمكن أن يكون حديثاً تقليدياً شأن الحديث عن كثيرات من النساء العراقيات الطيبات الأصيلات اللاتي يعتز بهن العراق على مدى سنوات طويلة وعبر أكثر من مكان وزمان. إنها تحمل خصوصية ربما تجمع -أو جمعت- كثيرات ممن عُرفن خلال زمن متغير تراكمت فيه أحداثٌ واحداث. و"زكية خليفة" هي الأنموذج العالي والمثل النزيه والنظيف للمرأة العراقية التي لا تستطيع إلا أن تنظر إليها باحترام كبير وب تقدير يمتزج بإعجاب لن يغيب عنها وإن اختلفت الأزمان والمواقع كما أشرت. يكفي أن الجميع لا يجروون أن ينادونها أو يسمونها باسمها "زكية" حتى من هم أكبر منها عمراً بسنوات ليست بالقليلة، لابد وأن نقول لها "عمّة زكية"، إنها "العمّة" الراحية والحنونة والرفيقة حتى في عتابها أو لومها لمن يحتاج لعتاب أو لوم، بل قد يستمتع لنصحها وتوجيهها ليشعر براحة نفسية أولاً لأنها التفتت إليه بمحبة واعتزاز كي لا يقع في خطأ مقصود أو غير مقصود، ولأنها ثانياً تبعث الدعوة والأمل في النفس كي تحول الظروف الصعبة إلى "سهولة" يمكن تجاوزها بل والتغلب عليها بالثقة والإيمان والإدراك الواعي لحقيقة الأشياء. و"عمّة زكية" لا يمكن أن ينساها من عرفها أو تعرف عليها، حتى الذين يلتقون بها على عجل، فهي تظل في البال ذاك "الحضور" المحترم والمؤثر.

في مسار الحركة الوطنية كنت واحداً من الباحثين عن كثيرين تأتينا أخبارهم دون أن نلتقي بهم، فجدران السجون قد عزلتهم عنا، لكنني كنت أبحث بفضول كبير لمعرفة المناضلات الباسلات الأمهات والأخوات وحتى صغيرات السن اللاتي يواجهن السجن وهن في بداية أعمارهن، وكنت أسمع باسمها حسب، لكن إحساساً عميقاً كان يدفعني لأن أعرّفها ذات يوم بل أسعد بوجودها رفيقة وأختاً كريمة.

بعد ثورة 14 تموز عام 1958، نشطت فرقتنا "المسرح الحديث" واتسع نشاطها لتكون الإذاعة واحدة من المنابر التي نستطيع من خلالها الوصول إلى "المستمع" وليس المشاهد فحسب وأن يكون المجال أو ميدان العمل لأوسع الجماهير، وعرفنا أن شرائح كبيرة من الشعب العراقي لاسيما المناطق البعيدة عن المدن التي لا تصلها الفعالية الثقافية والفنية إلا عبر المذياع وأن الوسيلة هنا غير وسيلة "المسرح" من حيث الطرف الذي يكون فيه المتلقي وأن فرقتنا المسرحية بحاجة إلى كادر هو من ذاك الوسط الذي نبغي الإقتراب منه وأن عدداً منهم مبدعون لديهم إمكانيات فنية وفكرية كي تصل أصواتهم ونوصل الرسالة التي نريدها لهم.

بالصدفة كنت في إذاعة بغداد وكانت هناك مجموعة من الفتيات يقدمن برنامج عن المرأة، وقفت على طرفٍ أستمع إليهن وأراقبهن بحمية واعتزاز وإذا بزكية أمامي واحدة منهن تقف أمام المايكرفون، وهي تضحك لأنها هكذا وبعد سنوات طويلة من العزلة والبعد تجد نفسها تخاطب "الجماهير" الواسعة عبر قطعة الحديد هذه...

"المايكرفون". إنتهى تسجيل البرنامج وإذا بي أتقدم إليها وأناديها "زكية هاي إنت وين؟" ألتفتت إلي وقالت بفرح "يا ... هذا أستاذ يوسف"، ولم يطل اللقاء إلا دقائق معدودة لتكون زكية عضوة في فرقتنا تشارك المجموعة التي

تقدم التمثليات الإذاعية الموجهة إلى الفلاحين والمنتزعة من مشاكلهم وقضاياهم المتعددة، بل راحت تكتب نصوصاً لهم مع المجموعة التي معها وتندمج معنا في الفرقة لتصبح وبكل جدارة عنصراً قيادياً في فرقة المسرح الحديث ثم فرقة المسرح الفني الحديث.

زكية خليفة التي صارت ممثلة في الفرقة تستمع لما يُقال لها من ملاحظات وهي تردد باعتزاز إنها تريد أن تتعلم، كانت في ذات الوقت تعلم الأخريات والأخرين ، إنموذجاً للإخلاص والحرص ونسياناً للمنافع الذاتية المجردة بل كانت قدوة وعصراً قيادياً عبر العمل وليس بالحديث وحده الذي كثيراً ما يردده غيرها دون دليل أو تطبيق. منطلق زكية مصلحة الفرقة ودورها في تقديم ما يأخذ بيد الناس نحو الخير والصدق وبناء الإنسان، وهكذا راحت تعمل في المسرح ثم السينما وهي تحسب بل تؤكد على أن الفن واجهة نضالية مؤثرة ولكن بصيغة تبعد عن الصيغ السياسية المباشرة، وهذه المسؤولية هي التزام كبير وصعب لكنه مفخرة لمن يستطيع أن يثبت جدارة وإبداعاً وفي هذا المعنى راحت زكية تعمل بجد متحملة أعباءً ومجهوداً بتعب يتجاوز قدراتها الصحية وظروفها الخاصة لتثبت للأخرين أن المعاناة هنا سعادة لا يمكن الحصول عليها إلا بالإبداع والإجادة، وراحت أيضاً "تربي" من هن أصغر منها سناً منها منطلقاً أولاً وقبل كل شيء من تقديس العمل وتعميق الإحساس بالمسؤولية وتأدية دورها كإنسانة ثم رائدة ومناضلة في كل موقع تكون.

"عمّة زكية" اكتسبت هذا اللقب لا بأمر إداري أو منحة من فوق بل من أعماق ومشاعر الذين عرفوها صغراً وشباباً وكباراً من اللاتي عرفنها أو الذين عملوا معها أو تعرفوا عليها، وهي رغم ذلك القرب الحميمي للناس نظل أو ظلت في الظل إلا حين يتطلب عملها الظهور المناسب والحضور الحيوي الذي لا تستطيع إلا أن تعجب به وتتأمله بمحبة حد العشق. عمّة زكية يطول الحديث عنها إنسانة ومناضلة وفنانة وما هذه الكلمات التي جاءت مني متأخرة إلا لون من الوفاء لها عبر خمسين عاماً كنا معاً عن قرب وعن بعد أصدقاء محبة وعمل ورفاق درب سعدنا بمعاناته وصعوباته ورسمنا للغير صوراً تستأهل الإعتراز منا أولاً ثم من قبل الآخرين و"عمّة زكية" هي الوجه والكيان الكبير فيه، أطال الله عمرها وأبقاها ذخراً للعراق كله.